اللغة العربية وإشكالية الهوية خلال الحقبة الاستعمارية للمغرب

The Arabic language and the problem of identity during the Colonial era in Morocco

ربيع عوادي (*)

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

ra.aouadi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 14 /2021/02 **تاريخ القبول**: 2021/04/24 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز السياسة الاستعمارية التي نهجتها سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب ضد الأهالي رغبة منها في القضاء على هويتهم الأصيلة ومحاولة دمجهم في المجتمع الفرنسي، فالاستعمار الفرنسي سعى جاهدا إلى نسف الهوية المغربية عبر المساس بالدين الاسلامي والقضاء على اللغة العربية ونشر المسيحية خاصة في الوسط البربري.

وعت فرنسا بأن الحفاظ على مصالحها بالمغرب يمر عبر ترسيخ استعمار بديل يعوض الانسحاب العسكري، وهو أخطر من سابقه لأنه يعتمد على الاستعمار الثقافي، لذلك توجه قادة الاستعمار منذ البداية إلى إخضاع النفوس والعقول ثقافيا للتمكن من إخضاع الأجساد، وحتى إذا ما توهمت الأجساد التحرر بالاستقلال تبقى العقول والنفوس مقيدة. وقد كانت وسيلتها لتحقيق ذلك على المستوى التعليمي تأسيس مدارس فرنسية مختلفة ومتنوعة تقدم تعليما باللغة الفرنسية والبربرية مع غياب شبه تام للغة العربية ضمن المقررات الدراسية، وقد اقتصرت هذه المدارس على نخبة معينة عقد عليها المسؤولون الفرنسيون آمالا مستقبلة.

الكلمات الدالة: الاستغلال الاستعماري، اللغة العربية، إشكالية الهوية، الحماية الفرنسية بالمغرب، الظهير البربري.

(*) **المؤلف المرسل: ربيع عوادي: ra.aouadi@gmail.com**

Abstract:

This research aims to highlight the colonial policy that the French protection authorities in Morocco approached against the people in their desire to eliminate their authentic identity and try to integrate them into French society. The French colonialism strived to destroy the Moroccan identity by undermining the Islamic religion, eliminating the Arabic language and spreading Christianity, especially in the barbarian milieu.

France was aware that preserving its interests in Morocco passes through establishing an alternative colonialism that compensates for the military withdrawal, it is more dangerous because it depends on cultural colonialism. Therefore, colonial leaders directed their attention to subjugate souls and minds culturally in order to be able to subjugate the bodies, and even if the bodies are deluded of liberation with independence, their minds and souls are remained tied. And Its way to achieve this in the educational field was to establish different and varied French schools that provide education in the French and Berber language, with an almost complete absence of the Arabic language within the courses, and these schools were limited to a certain elite for which the French officials held future hopes.

Keywords: Colonial exploitation, Arabic language, identity problem, the French protection in Morocco, the barbarian Dahir.

1. مقدمة:

تعود جذور تحرش السياسة الاستعمارية باللغة العربية إلى نهاية القرن التاسع عشر، خصوصا بعد تزايد الضغوط الاستعمارية وكثرة الوجود الأجنبي بالمدن والحواضر الكبرى فضلا عن انفتاح المغرب "مكرها" على الدول الأوروبية، فخلال هاته الفترة بدأت الإرهاصات الأولى لتداول بعض المفردات من اللغات الأجنبية خاصة لدى فئة من الناس الذين تربطهم علاقات مباشرة مع الأجانب سواء عبر التجارة أو السفر للحج أو غيرها، ثم بعد ذلك ذاع انتشار اللغة الفرنسية لدى عامة الناس بعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب، لاسيما بعد

تمكين الاحتلال اللسان الفرنسي على حساب اللسان العربي من خلال مخططات استعمارية مكشوفة تارة ومستترة تارة أخرى.

أدخلت السلطات الاستعمارية اللغة الفرنسية إلى المغرب وفرضتها قسرا حتى أصبحت لغة الإدارة والتعليم والاعلام، واقتصر استخدام اللغة العربية الفصحى على الوظائف الدينية والثقافية التقليدية باعتبارها لغة الثقافة العربية الاسلامية، وبذلك حاولت إدارة الحماية ربط مصطلح "الحضارة والتقدم" بالثقافة واللغة الفرنسية.

كانت فرنسا تعلم بأن جيوشها الاستعمارية عائدة إلى بلدها لا محالة فسعت إلى تحقيق السيطرة على مستعمراتها واستغلالها لأطول فترة ممكنة، وقد رأت في الحفاظ على سلطة لسانها أفضل السبل لذلك، فعملت على تعليم النخب المغربية التي ستتسلم السلطة بعد الاستقلال الثقافة الفرنسية لتنوب عنها في تنفيذ سياساتها في الداخل، لأنها تدرك بأن الهيمنة الثقافية استثمار طويل الأمد في مشروع الهيمنة السياسية والاقتصادية.

انطلاقا مما سبق تُطرح مجموعة من التساؤلات التي تتبلور في إطارها العام الإشكالية الأساسية لهذه الدراسة، قصد تحليل مضمونها وإبراز آثار الاحتلال الفرنسي على اللغة العربية والهوية الوطنية، فبناء على ذلك ما هو السر وراء الهجوم الفرنسي على اللغة العربية؟، وإلى أي حد تمكنت السياسة الاستعمارية النيل من اللغة العربية؟، وماهي مظاهر استهداف الهوية العربية الاسلامية؟ وكيف أثرت السياسة البربرية على اللغة العربية والهوية الاسلامية والوحدة الوطنية؟.

تكمن أهمية هذا المساهمة في تناولها اللغة العربية وإشكالية الهوية خلال الحقبة الاستعمارية للمغرب، وذلك من خلال القرارات والاجراءات التي اتخذتها سلطات الحماية للقضاء على اللغة العربية وإحلال مكانها اللغة الفرنسية عبر إصدار مجموعة من الظهائر، ولعل الظهير البربري لسنة 1930م يبقى أخطرها على الاطلاق لكونه شكل منعطفا خطيرا مس الهوية الاسلامية واللغوية والوطنية في الصميم، فضلا عن تشجيع التعليم باللغة الفرنسية والتضييق

على المؤسسات التعليمية الوطنية التي تدرس باللغة العربية، وكذا استخدام اللغة الفرنسية في الإدارات وغيرها.

استقبل المغاربة هذه الاجراءات التي تنال من الدين الاسلامي ووحدتهم الوطنية واللغة العربية باعتبارها أركان أساسية في هويتهم بالاستنكار والرفض الشعبي، فقام الجميع للدفاع عنها بمختلف الطرق وشتى الوسائل.

لذلك ارتأينا أن نتطرق لهذا الموضوع بالدراسة والتحليل من خلال العناصر التالية:

- وعي المستعمِر بأهمية اللغة العربية في تشكيل الهوية المغربية
- الحماية بالمغرب من الاستعمار اللغوي إلى الاستغلال الاستعماري
- أثر السياسة البربرية على الهوية المغربية.

2. وعي المستعمِر بأهمية اللغة العربية في تشكيل الهوية المغربية

ظهرت الحاجة إلى توسيع النفوذ الفرنسي بالمغرب من خلال تدريس اللغة الفرنسية والتمكين لها نهاية القرن التاسع عشر، ومن المنطقي جدا أن تلتقي اللغة الفرنسية باللغة الإسبانية شمال المغرب، حيث بدأت تنتشر بشكل جيد نسبيا لأسباب متعلقة بالعلاقات التاريخية للبلدين مع المغرب ولقربهما وجوارهما الجغرافي، حتى قبل خضوع المغرب لنفوذ الحمايتين الإسبانية والفرنسية[1].

فأسست في البداية أربع مدارس تابعة للفرنسيين بمدينة طنجة، ثم بدأت سلسلة من المدارس الفرنسية تفتح في القصر الكبير وتطوان والتي تُكمل الخطوط العريضة لمنطقة النفوذ الإسبانية بالمغرب تمهيدا للاختراق الأوروبي، وقد كانت مدينة فاس واحدة من النقاط الأكثر حساسية في الجنوب لأنها مدينة جذابة سياسيا ورمزيا، وهي قفل في منظور النفوذ المتزايد لفرنسا[2].

استغلت فرنسا الجوار الجزائري للعب دور قيادي في المغرب، حيث ظهرت عائلات ومجموعات جزائرية كبيرة لجأت إلى المغرب تتمتع بنفوذ حقيقي، لذلك كان من مصلحة فرنسا نشر استخدام اللغة الفرنسية بينهم لجذب أطفالهم إلى المدارس الفرنسية.

ولما كانت اللغة المدخل الرئيسي لتشكيل الهوية فإن فرنسا وعبر اختراقها اللغوي لمستعمراتها السابقة كانت تضرب عصفورين بحجر واحد، فهي من جهة تسعى إلى تكسير هويات المستعمر حتى تشل حركتها على المقاومة، لأن الجسد المقاوم هو روح وفكر متماسكين دينيا ولغويا وثقافيا، ومن جهة أخرى تسعى إلى تعويض هذه الهويات بهوية استعمارية بديلة[3]، لذلك فرضت سلطات الحماية اللغة الفرنسية لتشكيل هوية جديدة تنسجم مع اللغات المحلية، وهي نفسها على اتصال بإعادة بناء الهوية[4].

ولعل الهدف الاستراتيجي الذي سعت فرنسا الوصول إليه هو تحقيق السيطرة على المستعمرات لأطول وقت ممكن لاستمرار استغلالها الاقتصادي، سواء كمناجم للمواد الأولية وأيدي عاملة رخيصة أو كسوق استهلاكية واسعة، فهي لم تكتف من مستعمراتها بذلك، بل كانت تطلب إنجاز "جراحة ثقافية ولغوية تستتبع المستعمَر للمستعمِر، وتأتي بمعاول الهدم على استقلال شخصيته وكيانه فتدفعه إلى الاقتداء بالغالب والإذناب له، والتماهي معه وفقدان القدرة على وعيه لذاته إلا في علاقته الانجذابية به"[5].

رسمت فرنسا لحركتها الاستعمارية منذ البداية شكلا جديدا ركزت فيه على الاستعمار الثقافي وهو في جوهره أقوى وأعنف من الاستعمار العسكري، فالهدف من الشكلين معا هو الهيمنة والاستغلال الاقتصادي، غير أن الشكل الأول قابل للمقاومة المسلحة عكس الشكل الثاني من الاستعمار، حيث يمكنه التسلل خفية ويحقق أهدافه الاستراتيجية بكل يسر وأمان، بل وبمساعدة من المستعمَر[6].

وفي هذا الإطار يمكننا الحديث عن السلاح الثقافي للثقافة من خلال ثنائية أو ازدواجية اللغة التي تم تأسيسها بالفعل إلا أنهما غير متساويين؛ فاللغة الفرنسية لغة مهيمنة استوعبها المغاربة وتم تحويل استخدامها إلى أداة اجتماعية وسياسية للتمييز[7].

كان التركيز على طمس المعالم الحضارية العربية الإسلامية لغة ودينا وثقافة، إذ حدث عدوان صريح على اللغة العربية التي اختفى تعلمها في المدارس الثانوية[8]، ولما كان منطلق الاستعمار الثقافي مرتبط باللغة الفرنسية باعتبار أن اللغة هي صانعة الهوية والشخصية

الانسانية فقد تم خوض معركة شرسة ضد كل معالم التواجد اللغوي العربي لأنه يشكل عائقا أساسيا أمام الهيمنة الثقافية واللغوية الاستعمارية[9].

ولتوفير شروط ديمومة سيطرتها على المستعمرات حتى بعد الجلاء عنها بذلت فرنسا جهودا كبيرة للاستيلاء على العقل واللسان والوجدان استدرارا لصلة اتباع يرتبط بها المغلوب بالغالب، وقد كان ذلك أساس عناية السياسة الاستعمارية الفرنسية بما من شأنه أن ينتج الشروخ والفواصل العميقة للنسيج الاجتماعي والوطني[10]، وقد كان المدخل لذلك عنايتهم بالتعليم من أجل استئصال كل معالم الحضارة العربية الاسلامية وتعويضها بمعطيات حضارية جديدة مرتبطة بالاستعمار، وهذا ما أكده "بول مارتي" في كتابه مغرب الغد بالقول: "إن كل تعليم للعربية وكل تدخل من الفقيه وكل وجود إسلامي سوف يتم إبعاده بكل قوة، وبذلك نجذب إلينا الأطفال الشلوح (البربر) عن طريق مدرستنا وحدها ونبعد متعمدين كل مرحلة من مراحل نشر الإسلام"[11].

ولعل فرنسا بتفضيلها خيار الاستعمار الثقافي كانت أحدّ ذكاء من سائر الدول الاستعمارية التي شغلتها شهية النهب الاقتصادي للخيرات في إحراز أهداف أخرى بعيدة المدى عظيمة الفوائد، فتاريخ اللغة الفرنسية على التراب المغربي القائم على استبدال المشهد اللغوي التعددي قصد إعادة بناء الهوية يبرز بالملموس أنها أصبحت لغة الكثيرين على مر السنين مما سمح لها بالاستمرار في الوجود والتطور داخل المجتمع المغربي[12]، لا سيما مع نزوع العديد من أفراد البورجوازية الفاسية نحو العصرنة والتطلع للعيش على الطريقة الأوروبية والاقبال على تعلم اللغة الفرنسية، حيث تم التركيز على تعلمها من قِبل الأعيان، بل منهم من يضع أبناءه لدى عائلات فرنسية ظنا منه أن الوجود في مثل هذا الوسط يساعد لا محالة على التربية الحسنة[13].

يظهر المجال اللغوي المغربي خلال الحقبة الاستعمارية كموقع بناء حقيقي لإعادة بناء الهوية، وهو في حالة اضطراب مستمر، فاللغة الفرنسية في المغرب لغة اتصال وهي مكون عضوي لفسيفساء اللغات التي تتداخل مع بعضها البعض، لذلك ليس من المستغرب أن

يحمل كل منها بدرجات متفاوتة آثار رموز وأنواع مختلفة من اللغات التي تشكل رقعة الشطرنج اللغوية الخاصة به[14].

3. الحماية بالمغرب من الاستعمار اللغوي إلى الاستغلال الاستعماري

تميزت السياسة الثقافية الفرنسية في المغرب منذ وقت مبكر بالرغبة في فرض لغتها وثقافتها على حساب اللغات المحلية، وخاصة اللغة العربية التي رأت فيها فرنسا عدوها الأول بامتياز بسبب ارتباطها بالدين الاسلامي المحرك الأساسي لثقافة المقاومة، فشنت عليها حربا ضروسا تلخصها على المستوى التنظيري المنشورات والرسائل التي أصدرها المقيمون العامون وبعض أركان السلطة الفرنسية بالمغرب[15].

وعلى المستوى العملي تأسيس المدارس الفرنسية والمدارس الفرنسية البربرية والمدارس الفرنسية الإسلامية، التي هدفت جميعها إلى تكريس اللغة الفرنسية والثقافة الأوروبية ضمن المناهج التربوية، بل وأكثر من ذلك كان للسياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب سقف لا تتجاوزه مرتبط أساسا بتحقيق الأهداف الاستعمارية الفرنسية، فلم يكن المطلوب إذا تخريج طبقات متعلمة واعية بل مجرد تقديم تعليم لمختلف الطبقات حتى يسخروا لخدمة فرنسا[16].

وهذا ما أكده "جورج هاردي" مدير التعليم خلال الفترة الاستعمارية بالقول: "إن أكثر ما يجب أن نهتم به هو أن نحرص على أن لا تصنع لنا المدارس الأهلية رجالا صالحين لكل شيء ولا يصلحون لشيء، يجب أن يجد التلميذ بمجرد خروجه من المدرسة عملا يناسب التكوين الذي تلقاه حتى لا يكون من جملة أولئك العارفين المزيفين، أولئك اللامنتمون طبقيا العاجزون عن القيام بعمل مفيد والذي تنحصر مهمتهم في المطالبة؛ هؤلاء الذين عملوا على جعل التعليم الأهلي منبعا للاضطراب الاجتماعي"، وهو ما يبرز توجسه من تحول المدارس الأهلية من إنتاج "آلات بشرية" تخدم مصلحة المستعمر وسياساته إلى خريجين ذوي توجهات ثورية تعكر صفو السياسة الاستعمارية أو تقف حاجزا أمامها وعائقا لاستقرارها[17].

فرضت فرنسا انتقائية في التعليم، إذ ميزت بين طبقات المجتمع في تلقي أنماط التعليم بما يخدم مخططاتها للاستغلال الاستعماري، ولم يكن التعليم الموجه للمغاربة بالضرورة ذو توجه

واحد بل تميز بعضه عن بعض في الأهداف والطرق والوسائل، وهكذا وفرت سلطات الحماية تعليما خاص بالنخبة يُفتح في وجه الأرستقراطيات المثقفة من الأعيان المغاربة، ويقدم لها تعليما وتكوينا في ميدان الإدارة والتجارة، وتعليما شعبيا خاصا بالجماهير الفقيرة يتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي؛ في المدن يوجه التعليم نحو المهن اليدوية مثل البناء والحرف، وفي البادية يُوجه التعليم نحو الفلاحة، وفي المدن الشاطئية يُوجه نحو الصيد البحري والفلاحة، أما اللغة التي ستُدرس بها هذه المواد حسب "جورج هاردي" "هي اللغة الفرنسية التي بواسطتها سنتمكن من ربط التلاميذ بفرنسا"[18].

وقد عبر "بول مارتي" عن نفس التوجه بالقول: "يجب أن لا نهتم بالكم يجب أن لا نصنع في المغرب سنة بعد أخرى وبشكل مطرد وعلى حساب مصلحة المجتمع المغربي ومصلحة الإمبراطورية الفرنسية رجالا يُنمي فيهم التعليم أذواقا وحاجات وآمالا لن يقدروا على إرضائها بأنفسهم، ولن تقدر لا الحماية ولا المخزن ولا المستعمرة ولا الاقتصاد المغربي على تحقيقها لهم"[19]، فمن المهم عند "بول مارتي" أن يكون للسياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب سقف محدود يقتصر على الاستغلال الاستعماري فقط ولا يتجاوزه إلى تطوير وتحديث المجتمع.

لذلك عملت فرنسا كل ما بوسعها لأن تُبقي اللغة الفرنسية أداة اتصال بالنسبة للمغاربة وليست أداة ثقافة، وإن كانت هي اللغة المعتمدة في التدريس فإن تعلمها كان فقط من أجل تكوين الأشخاص المهارات التي تمكنهم من الاشتغال لصالح الحماية الفرنسية، وهذا ما يؤكده "لابي" بقوله: "نحن على أهبة الاستعداد لافتراض أن اللغة الفرنسية أداة اتصال بصفة مؤقتة، وإننا ندرك استمرار الخطر الذي نخاطر بالوقوع فيه والمتمثل في افتراض هذه اللغة كأداة للثقافة"[20].

كانت فرنسا على وعي تام بأن تحقيق الاستمرارية في بسط الهيمنة على مستعمراتها لا يمر بالضرورة عبر التواجد العسكري، ولكن قد يكون الأمر أقل تكلفة وأكثر ربحا من منظور الاستعمار الثقافي، وما دامت اللغة هي المدخل الرئيسي في أي استعمار بهذا الشكل فقد يتطلب الأمر التفكير في الوسائل اللازمة لفرض اللغة الفرنسية على المستعمرات، وكان تعليم

اللغة الفرنسية في المدارس حسب ما ادعته سلطات الحماية يهدف إلى تحرير عقول الناس قدر الإمكان ودمجهم في الأنظمة العقلانية للثقافة الأوروبية[21]، إلا أن هذا الطرح لا يصمد أمام الهدف الحقيقي من الغزو الثقافي الفرنسي والذي كانت تهدف من ورائه فضلا عن الاستغلال الاستعماري التحكم في الأجسام عبر التحكم في العقول والأرواح.

وهذا ما قصده بالضبط "جورج هاردي" حين أكد على أن انتصار السلاح لا يعني النصر الكامل لأن القوة التي تبني الإمبراطوريات لا تضمن لها الاستمرار والدوام، ويضيف "إن الرؤوس تنحني أمام المدافع في حين تظل القلوب تغذي نار الحقد والرغبة في الانتقام، يجب إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان، وإن كانت هذه المهمة أقل صخبا من الأولى فإنها صعبة مثلها وهي تتطلب في الغالب وقتا أطول"[22].

لهذا راهنت سلطات الحماية الفرنسية على الغزو الثقافي بقدر ما راهنت على الغزو العسكري، لا سيما وأن الغزو الثقافي لا يتطلب إمكانيات الغزو العسكري ومردوديته ونتائجه المرتبطة بالاستغلال الاستعماري تفوق ما يحققه الغزو العسكري، كما أنه يتميز بديمومته خصوصا وأنها كونت جيلا من المثقفين المغاربة ذوي الثقافة الفرنسية والذين يحمون المصالح الفرنسية ويدافعون عنها حتى بعد جلاء الاستعمار.

وبذلك تمكنت فرنسا باتباعها سياسات تعليمية ممنهجة من تحقيق السيطرة وتسريعها والحد من ممانعتها والتقليل منها في أقل الأحوال[23]، ليخلو لها المجال لتحقيق أقصى ما يمكن من الاستغلال الاستعماري للمغرب على جميع الميادين ومختلف المجالات.

4. أثر السياسة البربرية على الهوية المغربية

ظل الفرنسيون منذ احتلال الجزائر يبحثون عن الوسيلة التي تمكنهم من السيطرة على شمال إفريقيا، وكان يقف في طريقهم السكان الأصليين المتمسكين بإسلامهم ووحدتهم وعروبتهم، إلى أن أقدمت سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب في 16 ماي 1930م على إصدار الظهير البربري، وقد علق علال الفاسي على هذا الفعل بقوله: "والحقيقة أن هذه

السياسة هي آخر ما اهتدى إليه الفكر الفرنسي للقضاء على مقومات المغرب العربي وإدماجه في حظيرة العائلة الفرنسية"[24].

بدأت السياسة البربرية بظهير سبتمبر 1914م الذي أصدره المارشال ليوطي بدعوى احترام التقاليد البربرية، واستمرت هذه السياسة في مظاهر متعددة إلى أن تجلت فيما سمي بالظهير البربري الصادر في 16 ماي 1930م، ومع أن هذا الظهير غامض الدلالة إلا أنه جرد الحكومة الشريفة من سيادتها على القبائل البربرية وأحدث محاكم عرفية لم يشهدها المغرب في تاريخه[25].

وقد توخت الحماية الفرنسية من تطبيقها السياسة البربرية المس بالهوية المغربية، وذلك بهدف إحداث شقاق وفرقة في المجتمع المغربي عبر تنفيد سياسة "فرق تسد"، والتي عملت من خلالها على إبراز أوجه الاختلاف بين العنصر العربي والعنصر البربري المكونِيَن الرئيسيين للمجتمع المغربي، واختبار مدى استعداد العنصر البربري للاندماج في المجتمع الفرنسي.

وفي هذا الصدد يقول "ليوطي" المقيم العام الفرنسي بالمغرب: "لقد عملت في حدود حمايتنا بالمغرب على تنويع الصيغ والأساليب لتتلاءم مع كل الأوضاع بهذا البلد متعدد العناصر، إنني لا أجهل أن مصلحتنا في المجال الديني كما في المجال السياسي تكمن في أن نفرق أكثر من أن نوحد"[26]. هكذا عمل نظام الحماية على فصل الهويات ضمن حدود السيطرة الفرنسية، وإن كان بقاء الحكومة المغربية والمخزن في مكانه يوحي بوجود ازدواجية منظمة في الادارة والعدالة؛ المسلمون مقابل الأوروبيين والقانون الاسلامي مقابل القانون الفرنسي[27].

ويرى المنظرون الاستعماريون أن البربر بصفة خاصة لم يعرفوا من الاسلام سوى الاسم، فنجد منهم بقايا الوثنية والمسيحية ولذلك فهم أبعد ما يكون عن الاسلام وأقرب إلى المسيحية، ومن تم فمن السهل تنصيرهم وإلحاقهم دفعة واحدة بالمجتمع الفرنسي، سيما وأنهم يشكلون كتلة محافظة لها تقاليدها وأعرافها وأنماط تفكيرها وعيشها، فهاته الفكرة سياسة

عنصرية ودينية لأنها تجاوزت الاحتلال العسكري والاداري والاقتصادي إلى تمزيق وحدة البلاد، ظنا منهم أنها السبيل الأقرب لإخضاع مناطق المقاومة بالمغرب[28].

راهنت فرنسا من خلال سياستها البربرية على الفصل بين البربر وبين كل ما جاء به العرب من لغة وقضاء وثقافة، ليُمس البربر في وجدانهم الخاص ويبحثوا عن الروحانية المسيحية القديمة، وليس بعيدا أن يتمسحوا ويندمجوا في فرنسا التي تحررهم من سيطرة العرب الروحية والزمنية[29].

لكن اتحاد كل القوى الوطنية في صف واحد نسف مخططات السياسة البربرية التي تستهدف الامتداد العربي الاسلامي للمغرب، وهكذا استغلت الحركة الوطنية السياسية صدور الظهير البربري لتحقيق هدفين أوليين:

– مزيد من التوعية الشعبية في المدن والقرى

– مواجهة الاستعمار وكشف مساسه بالدين الاسلامي ضدا على بنود الحماية التي تؤكد احترام الاسلام وتقاليده[30].

اندلعت في مختلف أرجاء البلاد مظاهرات شعبية واسعة منددة بهذا المخطط الفرنسي البغيض، الذي يستهدف في عمقه ضرب الوحدة الوطنية للمغرب والنيل من مقوماته العقدية والحضارية، وقد تجاوز صدى الظهير البربري وقمع السلطات الفرنسية للمتظاهرين المغرب إلى بعض دول العالم الاسلامي وأوروبا، ففي مصر قام الحسن بوعياد بدور فعال في تحريك الرأي العام ضد السياسة الفرنسية[31].

كما عمل شكيب أرسلان على مقاومة الظهير البربري بإرسال رسائل شخصية إلى الشخصيات المؤثرة في الأوساط العربية والفرنسية، والتنسيق مع رجال الحركة الوطنية واختيار أفضل وأنجع السبل للمقاومة، وقد اعتبرت جريدة "الطان" الفرنسية الصادرة بتاريخ 4 نونبر 1930م شكيب أرسلان المسؤول عن تحريك الطلبة المغاربة بباريس، وهؤلاء هم الذين حركوا الشعب المغربي وكذلك مصر والعالم الاسلامي، فكل تلك الحركات بين الشرق والغرب هي من الأمير شكيب أرسلان[32].

وإذا كانت السلطات الفرنسية قد فشلت في المواجهة الشعبية التي تقودها الحركة الوطنية فإن توجهها كان نحو التعليم باعتباره مجالا خصبا لزرع بذور الثقافة الفرنسية، وكان التركيز هذه المرة على اللغة باعتبارها الركن الأساسي في الهوية المغربية، وذلك من خلال محاربة اللغة العربية في المدارس وتعويضها باللغة الفرنسية[33].

وهكذا قررت فرنسا إنشاء مدارس فرنسية بربرية لتمزيق الهوية المغربية، وتكوين جيل تابع لها هجين الثقافة مفتقد للهوية ومستعد للتضحية من أجلها عند أول نداء، فهي تدرك بأن ترك المغاربة كتلة واحدة ملتحمة تجمعها اللغة والدين الواحد يشكل خطرا عليها، لذلك بادرت إلى تطبيق سياسة "فرق تسد" لصالحها، وفي هذا الإطار يؤكد "جود فروي دمونبيين" بأن "وجود العنصر البربري هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي، ويمكننا أن نستعمله ضد المخزن نفسه"[34].

وقد أفصحت فرنسا بوضوح عن هذا الهدف بإنشاء مدارس بربرية لتلقين أبناء البربر اللغة الفرنسية واللغة البربرية فقط، يسيطر عليها اتجاه مهني فلاحي، واشتمل البرنامج الدراسي في هذه المدارس على دراسة تطبيقية للغة الفرنسية تواصلا وكتابة، وكذا الحساب والتاريخ والجغرافيا، فكانت هذه المدارس إذن كما خطط لها بول مارتي "مدارس فرنسية بالمعلمين بربرية بالتلاميذ، وليس هناك أي مجال لوسيط أجنبي، إن أي شكل من أشكال تعليم العربية أو أي تدخل من جانب الفقيه أو أي مظهر من المظاهر الاسلامية لن يجد مكانه في هذه المدارس بل سيُقصى منها جميع ما ذكر بصرامة"[35].

بذلت فرنسا قصارى جهدها لفصل البربر عما تراه هوية دخيلة عليهم، بل حتى سلخهم عن هويتهم الأم الأمازيغية وهويتهم الإسلامية، التي تعد حسب ليوطي عقبة في طريق فرض اللغة الفرنسية على الأمازيغ؛ فكونهم مسلمين يعني ارتباطهم بالقرآن، وارتباطهم بالقرآن يعني ارتباطهم باللغة العربية تعليما وتعلما وممارسة لغوية، وبالتالي فالعربية عنصر أسلمة لكونها تلقن في القرآن وهو ما يتعارض مع مصلحة فرنسا، فكانت السياسة البربرية انطلاقا من

الظهائر والمراسيم مرورا بالتعليم البربري محاولة فرنسية لتمزيق الهوية والوحدة المغربية ودمج العنصر البربري في المجتمع الفرنسي.

5. خاتمة:

رغبت سلطات الحماية الفرنسية من خلال محاولتها الاختراق اللغوي للمغرب في تشكيل هوية جديدة، تعتمد على الثقافة واللغة الفرنسية بعد القضاء على اللغة العربية والدين الاسلامي، وإحداث شرخ في الجسد المغربي عبر الفصل بين مكوناته المجتمعية من خلال إصدار الظهير البربري وكذا تكريس نشر اللغة الفرنسية عبر التعليم.

ولما كان منطلق الاستعمار الثقافي مرتبط باللغة الفرنسية باعتبار اللغة هي صانعة الهوية والشخصية الانسانية، فقد تم خوض معركة شرسة ضد كل معالم التواجد اللغوي العربي لأنه سيشكل عائقا أساسيا أمام الهيمنة الثقافية واللغوية الاستعمارية.

استطاعت فرنسا عبر اتباعها لسياسة تعليمية ممنهجة من تحقيق السيطرة على المغرب وتسريعها، وكذا الحد من الممانعة والمقاومة أو التقليل منها في أقل الأحوال، ليخلو لها المجال بغية تحقيق أقصى ما يمكن من الاستغلال الاستعماري على جميع الميادين ومختلف المجالات.

6. قائمة المراجع:

- امحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994).
- عبد النبي باقدير، شكيب أرسلان ودوره في تحرير المغرب العربي (ليبيا-الجزائر- المغرب الأقصى)، (تلمسان: جامعة أبو بكر بلقايد كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، 2018م).
- قاسم الزهيري، إسهامات مصر في كفاح المغرب، ضمن ندوة "العلاقات التاريخية المصرية المغربية رصيد وآفاق"، (سلا: دار الثقافة للطبع والنشر، 1988).
- عبد الاله بلقزيز، الفرنكفونية إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي_لغوي، حلقة نقاشية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011).

ـ عبد الكريم غلاب، قراءات جديدة في تاريخ المغرب العربي، (بيروت: دار الغرب الاسلامي، 2005م).

ـ علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، (الدار البيضاء: مؤسسة علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، 1993م).

ـ محمد عمراني، جامعة القرويين والحماية 1912_1934، (الرباط: منشورات الرباط نت، 2016).

ـ ادريس جنداري، الفرنكفونية إيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي،
http://www.arabtimes.com/portal/article_display.cfm?Action=&Preview=No&ArticleID=22718-, 2020_11_13

ـ خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب،
http://islamport.com/w/amm/Web/135/4312.htm,
2020_12_12

ـ حاتم بن محمد الكوراجي، التعليم في المغرب في عهد "الحماية" الفرنسية بين الفرنسة وسلخ الهوية،
https://www.alukah.net/social/0/112376/, 7/2/2017.

ـ بشرى زكاغ، تدبير الشأن الثقافي في المغرب خلال مرحلة الاستعمار، يوليوز 2016، عمران للعلوم الاجتماعية.
https://omran.dohainstitute.org/ar/issue017/Pages/art02.aspx, 2020_11_10 .

ـ محمد اليزيدي، النخبة المغربية والتعليم الأوروبي زمن الحماية،
https://www.aljabriabed.net/n77_09yazidi.(2).htm
18 _ 01 _2021.

- CAROLINE, VABRET, POUR UNE ETHIQUE DE LA FRANCOPHONIE, https ://etlettres.com/CAROLINE_VABRET_POUR_UNE_éthique_de_la-francophonie, 8 juillet 2019.
- FRANCIS, MANZANO, Sur l'implantation du français au Maghreb: Systémique et fractures identitaires au tournant des XIXème et XXème siècles, https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-00357266/, 29 jan 2009.
- FOUZIA, BENZAKOUR, Langue française et langues locales en terre marocaine : rapports de force et reconstructions identitaires, https://www.cairn.info/revue-herodote-2007-3-page-45.htm, 1_9_ 2007.
- G .JACQUETON, La colonisation francaise au Maroc, https://www.persee.fr/doc/geo_0003-4010_1924_num_33_183_9685, 11_11_2020.
- (wikipedia l'encyclopédie libre), Langue française au Maroc, https://fr.wikipedia,org/wiki/langue_française_au_Maroc, 14_11_2020.

_ FOUZIA, BENZAKOUR, Le français au Maroc. De la blessure identitaire à la langue du multiple et de la «copropriation», dorif Universita, https://www.dorif.it/ezine/ezine_articles.php?art_id=47, 6_11_2020.

_ LUCETTE, HELLER GOLDENBERG, La littérature francophone au Maroc. L'acculturation, persee, https://www.persee.fr/doc/camed_03959317_1989_num_38_1_1770camed_0395_9317_19898_num_ 38_1_1770, 8_11_2020.

7. هوامش:

[1]_ FRANCIS, MANZANO,(2009), Sur l'implantation du françaisau Maghreb: Systémique et fractures identitaires au tournant des XIXème et XXème siècles, hal.archives-ouverte. fr, https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-00357266/, 12_11_2020.

[2] -Ibid.

[3]. ادريس جنداري، الفرنكفونية إيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي، Arab Times Blogs, http://www.arabtimes.com/portal/article_display.cfm?Action=&Preview=No&ArticleID=22718-,_11_13_ 2020

[4]_FOUZIA, BENZAKOUR, Langue française et langues locales en terre marocaine : rapports de force et reconstructions identitaires, 1_9_ 2007,cairn.info, 8_11_2020. https://www.cairn.info/revue-herodote-2007-3-page-45.htm

[5]– عبد الاله بلقزيز، الفرنكفونية إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي_لغوي، ماي 2011، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (د. ت)، ص 19.

[6]– ادريس جنداري، الفرنكفونية إيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي، م س.

[7] -CAROLINE,VABRET, POUR UNE ETHIQUE DE LA FRANCOPHONIE, 8 juillet 2019, EN TOUTES LETTRES, 10-11-2020.

https ://etlettres.com/CAROLINE_VABRET_POUR_UNE_éthique_de_la-francophonie.

[8]- FRANCIS, MANZANO, Op Cit.

[9]– ادريس جنداري، م س.

[10]. عبد الاله بلقزيز، م س، ص 20.

[11]– ادريس جنداري، م س.

[12] -FOUZIA, BENZAKOUR, Le français au Maroc. De la blessure identitaire à la langue du multiple et de la «copropriation», dorif Universita, 6_11_2020.

https://www.dorif.it/ezine/ezine_articles.php?art_id=47

[13]– محمد اليزيدي، النخبة المغربية والتعليم الأوروبي زمن الحماية،

https://www.aljabriabed.net/n77_09yazidi.(2).htm

[14] -FOUZIA, BENZAKOUR , Op cit.

[15]– بشرى زكاغ، تدبير الشأن الثقافي في المغرب خلال مرحلة الاستعمار، يوليوز 2016، عمران للعلوم الاجتماعية، 2020_11_10.

https://omran.dohainstitute.org/ar/issue017/Pages/art02.aspx

[16]– حاتم بن محمد الكوراجي، التعليم في المغرب في عهد "الحماية" الفرنسية بين الفرنسة وسلخ الهوية، 7/2/2017، الألوكة الاجتماعية، 2020/10/28.

https://www.alukah.net/social/0/112376/

17. حاتم بن محمد الكوراجي، نفسه.

[18]. خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب الكتاب، الموسوعة الشاملة

www.islamport.com، .2020_12_12

http://islamport.com/w/amm/Web/135/4312.htm

[19]. حاتم بن محمد الكوراجي، م س.

[20] . LUCETTE, HELLER GOLDENBERG, La littérature francophone au Maroc. L'acculturation, persee, 8_11_2020. https://www.persee.fr/doc/camed_0395-9317_1989_num_38_1_1770camed_0395_9317_19898_num_ 38_1_1770

[21] .FRANCIS, MANZANO, Op Cit.

[22]. ادريس جنداري، م س.

[23]. حاتم بن محمد الكوراجي، م س.

[24] علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، م س، ص 162.

[25]- نفسه، ص 164.

[26]- امحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1994، ص 194.

[27] -MANZANO, FRANCIS, Op Cit.

[28]- غلاب عبد الكريم، قراءات جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2005م، ص 338.

[29]- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، م س، ص 162.

[30]- عبد الكريم غلاب، م س، صص 338 339.

[31]- قاسم الزهيري، إسهامات مصر في كفاح المغرب، ضمن "العلاقات التاريخية المصرية المغربية رصيد وآفاق"، دار الثقافة للطبع والنشر، سلا، يوليوز 1988م، ص 182.

[32]- عبد النبي باقدير، شكيب أرسلان ودوره في تحرير المغرب العربي (ليبيا-الجزائر- المغرب الأقصى)، جامعة أبو بكر بلقايد كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، تلمسان، 2018م.

[33]– خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب، م س.

[34]– علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، م س، ص 163.

[35]– خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب، م س.